﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: 161]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ جزاءِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ بملَّةِ إبراهيمَ الحنيفيَّةِ، ودينه القيِّم

لمَّا بيَّنَ السِّياق - ما مضى من آياتٍ - دلائلَ التَّوحيدِ بالأدلَّةِ القاطعةِ، وأظهَرَ ميزانَ الجزاءِ بمضاعفتِه الحسناتِ، والعدلَ في تقرير السَّيِّئاتِ، تقديمًا لمن أحسنَ، وإنصافًا لمن أساءَ؛ أمرهُ ﷺ، أنْ يبيِّنَ لهمُ الدِّينَ القويمَ، والطَّريقَ المستقيمَ الَّذي شرعهُ لهُ، وجعَلَ هدايتَهُ فيهِ، فهوَ دينُ الفِطرةِ، دينُ أبيهمْ إبراهيمَ [1] عليه السلام، وكلُّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسِه، والهدايةُ لا تحصلُ إلَّا منهُ تعالى.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قِيَمًا﴾: مِنَ الفعلِ (قام)، الجذرُ اللُّغويُّ لهُ (قَوَمَ)، ومنهُ قِوامُ الأمرِ، أي: أساسُهُ ومِلاكهُ، وبهِ يقومُ أمركمْ[2]، والأصلُ في معنى القافِ والواوِ والميمِ دلالتُهُ على الثَّباتِ والعزيمةِ، ويقالُ: قامَ بهذا الأمرِ؛ إذا اتَّخذهُ، واعتنقهُ. ويقالُ: هذا قِوامُ الدِّينِ، أي: بهِ يقومُ[3]، ومعنى دينًا ﴿قِيَمًا﴾: "أي: ثابتًا مقوِّمًا لأمورِ معاشِهم ومعادِهم"[4]. ومعنى الدِّينِ القيِّمِ في الآيةِ بمعنى المستقيمِ الَّذي لا عِوَجَ فيه، أو هو ذو الاستقامةِ[5].

2) ﴿مِّلَّةَ﴾: جذرهُ اللُّغويُّ منْ (ملل)، ويجوزُ منْ (ملو)، والمِلَّةُ معناها: "الشَّريعةُ والدِّينُ، شريعةٌ تمدُّ، ويُزَوَّدُ بها لإصلاحِ حالِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/337، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/12.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قوم).
(5) مقاتل، تفسير مقاتل: 1/600، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/336.

الخلقِ ومآلهمْ"[1]. والأصلُ في معنى المِلَّةِ دلالتُها على الامتدادِ في الزَّمانِ وغيرِه[2]، و"المِلَّةُ لاتُضافُ إلّا إلى النَّبيِّ - ﷺ - الَّذي تُسنَدُ إليهِ؛ نحوُ: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]" وإضافتُها إلى اللّهِ تعالى، لا تكادُ تكونُ موجودةً في القرآنِ الكريمِ، ولا إلى آحادِ أمَّةِ الرَّسولِ ﷺ [3].

ومعنى الـ ﴿مِّلَّةَ﴾ في الآيةِ وفي القرآنِ: مجموعةٌ مِنَ الأعمالِ والعقائدِ الَّتي تُلْتَزمُ منْ طائفةٍ مِنَ النَّاسِ تجمعُهمْ، وتكونُ طريقةً لهمْ في عبادتِهمْ، فهيَ الدِّينُ والشَّريعةُ، أوْ مرادفةٌ لهما[4].

3) ﴿حَنِيفًا﴾: اسمٌ على وزنِ فَعِيل، جذرُهُ اللُّغويُّ من (حنف)، ومعنى الحنيفيَّةِ: الميلُ، فإنَّ إبراهيمَ ﷺ مالَ إلى دينِ اللّهِ، وهو الإسلامُ[5]، والأصلُ في معنى الحنيفِ: الميلُ إلى الدِّينِ المستقيمِ[6]، فهو ميلٌ عن الضَّلالِ، يقالُ: تحنَّفَ فلانٌ؛ إذا تحرَّى طريقَ الاستقامةِ، ثمَّ أُطْلِقَ على دينِ إبراهيمَ [7] ﷺ.

والحنيفُ المسلمُ الَّذي يتحنَّفُ عنِ الأديانِ الباطلةِ، أي: يميلُ عنها إلى الدِّينِ الحقِّ، "فقد كانت عبادةُ الأصنامِ هي الشَّائعَةَ، وكان هناك أفرادٌ نصارى، وربَّما كانَ هناك غيرُ ذلكَ، فمنْ مالَ عن ذلك كلِّه، وعَبَدَ اللّه وحدَه، كانَ حنيفًا"[8].

ومعنى ﴿حَنِيفًا﴾ في الآيةِ، أي: مائلًا إلى دينِ اللّهِ، وهوَ الإسلامُ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرٌ من الحقِّ ﷻ لرسولِه الكريمِ ﷺ أنْ يخبرَ النَّاسَ بما امتنَّ عليه من الهُدى، وبأن أرشدَه إلى سبيلِ الحقِّ المستقيمِ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا حَيَدانَ؛ فهو الدِّينُ القويمُ الثَّابتُ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ملل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملل).
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/693.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حنف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنف).
(7) الرّاغب، المفردات: (حنف).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حنف).
(9) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 4/337.

الموصلُ إلى سعادةِ الدَّارين، فهو شريعةُ إبراهيمَ ﷺ، المتجانفِ عن الشِّركِ والضَّلالِ إلى الحقِّ والتَّوحيدِ.

هدايتُه تعالى لرسولِه إلى شريعةِ إبراهيمَ المُجانِفةِ للشِّركِ والضَّلالِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ واقعةٌ موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ في السِّياق:

تقعُ هذهِ الآيةُ بلاغيًّا موقعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، المنتقلِ من مجادلةِ المشركينَ، إلى ما أمرَ به الرَّسولُ ﷺ في شأنِ التَّوحيدِ، من أجلِ غلقِ بابِ الجدالِ مع أولئك، وأنَّه ثابتٌ على ما جاءَ به من الحقِّ والهدايةِ، وليسَ إعراضُهم عن الحقِّ بشيءٍ[1].

الانتقالُ من مجادلةِ المشركينَ، إلى ما أمرَ به من التَّوحيدِ والهدايةِ

طيُّ سجلِ المحاجَّةِ مُؤْذِنٌ باختتامِ السُّورةِ الكريمةِ:

إذا أشبعَ الواعظُ الكلامَ في مرماهُ وغرضِه، ثمَّ انتقلَ إلى ما رضيهُ لنفسِه، وما هو قارٌّ عليه من أصولِ الدِّينِ؛ عَلِمَ المُخاطَبُ أنَّه في طريقِهِ إلى طَيِّ سجلِّ المناقشةِ والمُحاجَّةِ، إيذانًا بانتهاءِ السُّورةِ[2]، وقد آلَتْ إلى بيانٍ ختاميٍّ بليغٍ، مفادُه أن يقولَ الرَّسول المبلِّغ للنَّاس: "إنَّ ربِّي أرشدني، ووفَّقني إلى طريق مستقيم، بلغَ نهايةَ الكمالِ في الاستقامةِ، وكان هو الدِّين الَّذي اتَّبعه إبراهيم، مائلًا به عنِ العقائدِ الباطلةِ، وما كان إبراهيم يعبدُ مع اللّه إلهًا آخر، كما يزعم المشركون"[3].

هناك براعةٌ في الاختتامِ تُضاهي براعةَ الاستهلالِ

دلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ في ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾:

في الآيةِ استهلَّ الحقُّ ﷻ بفعلِ القولِ في قولِه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وثمرةُ فعلِ القولِ الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، والتَّنويهُ به[4]، فمن الملاحظ في القرآن الكريم أنَّ الآياتِ الَّتي

لا أهمَّ من الدِّلالةِ على الهدايةِ، ولا أعظمَ منها مقصدًا وغايةً

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 8/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 8/197.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/197.

ابتدأت بهذا الفعل، تَلَتْها أوامرُ وأحكامٌ وقضايا، استحقَّت أن يتولَّى أمرَها النَّبيُّ ﷺ، وهو هنا هدايتُه تعالى إلى طريقِ الحقِّ المستقيمِ، وهو قَمينٌ بذلكَ، فلا أعظمَ من أن يكونَ اللّٰهُ لك هاديًا.

نكتةُ اشتمالِ جملة ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي﴾ على مؤكِّداتٍ عدَّةٍ:

تقويةُ مضمونِ العمومِ في هدايتِه تعالى

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾، فائدةُ توالي المؤكِّداتِ في الجملةِ، كحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)، والجملةِ الاسميَّةِ، وذِكْرِ المسنَدِ إليه مرَّتين: مرَّةً بكونِه مبتدأً، ومرَّةً بكونِه ضميرًا متَّصِلًا بالفعل ﴿هَدَىٰنِي﴾ وكلُّ ذلك جاءَ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ ولأنَّها خطابٌ للمشركينَ الَّذين كذَّبوه[1]، وهو أنَّ هدايتَه تعالى الغايةُ الَّتي يرجوها كلُّ إنسانٍ.

دلالةُ تعريفِ المسنَدِ إليه ﴿رَبِّيٓ﴾ وإضافتِه:

غرضُ الإضافةِ الاعتزازُ بمربوبيَّةِ اللهِ، والتَّعريضُ بالمشركينَ

وقولُه: ﴿رَبِّيٓ﴾ تعريفٌ للمسنَدِ إليهِ بالإضافةِ، وهي إضافةُ تشريفٍ، فهوَ منْ بابِ الاعتزازِ بِمَرْبوبِيَّتِهِ ﷻ الَّذي هداهُ، وتعريضٌ بالمشركينَ الَّذينَ اتَّخذوا أربابًا، فأضلُّوهمُ الطَّريقَ[2]، وقد ربَّاه ربُّه وحماه، وأمره " أن يخبر بما أَنْعَمَ اللّٰهُ عليه من الهداية إلى الطَّريق القويم الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا انحراف، وهو الدِّين القَيِّم، المؤدِّي إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة"[3].

الغرضُ من الخبرِ في ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي﴾:

الهادي هو الحقُّ الجديرُ بالعبادةِ، لا معبوداتُ البشرِ

قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾، في خبرِ الجملةِ أسندَ الهدايةَ إلى ربِّهِ، وفيها دلالةٌ على الاختصاصِ، والمعنى: أنَّ الهاديَ هوَ معبودي الَّذي أعبدهُ، وهوَ الحقُّ ﷻ ، لا معبودكمُ الَّذي تعبدونهُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ، فإنَّكمْ لوْ وحَّدتمُ الرَّبَّ الجديرَ بالعبادةِ؛ لَهُديتمْ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/314، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(3) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 1/632.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/703، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.

تعديةُ فعلِ الهدايةِ بـ﴿إِلَىٰ﴾:

غرضُ تضمُّنِ الاهتداءِ فعلَ الإرشادِ إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ

جعلَ الفعلَ (هدى) متعدِّيًا بالحرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، معَ أنَّ الفعلَ (هدى) يتعدَّى بنفسِه لقولِه تعالى في فاتحةِ الكتابِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، فأوردهُ على جعلِ الهدايةِ متضمِّنةً معنى الإرشادِ والتَّعليمِ، فالمهتدي كمن يسيرُ راشدًا إلى الطَّريقِ الصَّحيحِ المستقيمِ[1].

نكتةُ تقديمِ المفعولِ بهِ على الفاعلِ، يفيدُ الاختصاصَ:

الهدايةُ إلى الطَّريقِ المستقيمِ، لا تكونُ إلَّا منهُ تعالى

وفي جملةِ: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، تقدَّمَ المفعولُ الياءُ من ﴿هَدَىٰنِي﴾، على الفاعلِ ﴿رَبِّيٓ﴾، والمعنى: "إنَّني أرشدَني رَبِّي، وأوصلَني بما أوحاهُ إليَّ بفضلِه واختصاصِه في هذهِ السُّورةِ، وكذا غيرِها، إلى طريقٍ مستقيمٍ، يصلُ سالكهُ إلى سعادةِ الدَّارينِ"[2]، فقدِ اختصَّهُ تعالى بإرشادِ قومِه وهدايتِهمْ، وهوَ منْ فضلِه وامتنانِه على رسولِه، فالتَّقديمُ هو لعظيمِ الامتنانِ والشُّكرِ للهِ.

الاستعارةُ في التَّشبيهِ بهيئةِ مَنْ يدلُّ السَّائرَ على الطَّريقِ:

الإرشادُ إلى الحقِّ دلالةٌ وتوجيهٌ، يؤدِّي إلى صراطٍ مُستقيمٍ

وفي قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ استعارةٌ، فقدْ "شَبَّهتْ هيئةَ الإرشادِ إلى الحقِّ المُبَلِّغِ إلى النَّجاةِ، بهيئةِ منْ يدلُّ السَّائرَ على الطَّريقِ المُبَلِّغةِ المُوصِلَةِ إلى المَقْصُودِ. وثمَّةَ علاقةٌ وثيقةٌ بَيْنَ الهِدَايَةِ وَالصِّرَاطِ؛ فالهدايةُ تعريفٌ بالطَّريقِ، والطَّريقُ هوَ الصِّراطُ"[3]، فتناسبا منْ هذهِ الجهةِ.

بلاغةُ استعارةِ الصِّراطِ للدِّينِ القويمِ بجامعِ المشاكلةِ:

الدِّينُ والصِّراطُ، كلاهما طريقٌ مُفْضٍ إلى المُرادِ

ومعنى الصِّراطِ المستقيمِ في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198، والقشيريّ، لطائف الإشارات: 1/514.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/211.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198. (بتصرف).

﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾، هوَ الدِّينُ القويمُ، وهوَ الطَّريقُ الواسعةُ[1]، فاستُعيرَ للدِّينِ القويمِ، بجامع أنَّ كليهما موصلٌ إلى الغَايَةِ والهدفِ.

نكتةُ وصفِ الصِّراطِ بالاستقامةِ معَ أنَّهُ لا يكونُ إلَّا مستقيمًا:

الإسلامُ كالصِّراطِ المستقيمِ، وهو الطَّريقُ الواضِحَةُ البَيِّنَةُ

قولُه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وصفَ الصِّراطَ بأنَّهُ مستقيمٌ، أيْ: لا خطأَ فيهِ ولا انحرافَ؛ إذْ لا يتحيَّرُ سالكهُ في أمرِهِ، "ولمَّا شبَّهَ الإسلامَ بالصِّراطِ، وجُعِلَ كالشَّيءِ المشاهدِ، صارَ كالطَّريقِ الواضحةِ البيِّنةِ، فادَّعى أنَّهُ مستقيمٌ، أيْ: لا اعوجاجَ فيهِ؛ لأنَّ الطَّريقَ المستقيمَ أيسرُ سلوكًا على السَّائرِ، وأسرعُ وصولًا بهِ"[2]، فأفادَ وصفُهُ بالاستقامَةِ مزيدَ توكيدٍ وتقريرٍ.

الموقعُ البيانيُّ والنَّحويُّ لِلَفْظِ ﴿دِينًا﴾، محتمِلٌ أَوْجُهًا عِدَّةً:

اللَّفظُ متَّصلٌ بما قبلهُ، واقعٌ موقعَ المفعولِ أوِ الحالِ أوِ البدلِ

ولفظةُ (الدّين) في قولِه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾، لها اتِّصالٌ بسابقِها، فهيَ إمَّا بدلٌ مِنَ الصِّراطِ المذكورِ آنفًا، والتَّقديرُ: هداني صراطًا مستقيمًا، ويجوزُ أنْ تكونَ مفعولًا لفعلٍ مضمرٍ، تقديرهُ: هداني، أوْ عرَّفني، أوْ نحوهُ[3]، ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا على الحالِ منْ ﴿صِرَٰطٍ﴾؛ لأنَّهُ نكرةٌ موصوفةٌ[4].

توجيهُ القراءاتِ في لفظ ﴿قِيَمًا﴾ من قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾:

التَّشديدُ دالٌّ على المبالغةِ في الاستقامةِ ولزومِ طريقِها

قولُهُ تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قِيَمًا: بكسرِ القافِ، وفتحِ الياءِ مخفَّفةً، قراءةُ ابنِ عامرٍ والكوفيِّينَ، وفتحُ القافِ وكسرُ الياءِ مشدَّدةً قراءةُ الباقينَ[5]، و(القيِّم) زنةُ (فَيْعِل)، وهو بمنزلةِ فعَّال[6] الدَّالِّ على المبالغةِ في الاستقامةِ، ولزومِ الطَّريقِ المستقيمِ، وهو أبلغُ من ﴿قِيَمًا﴾ من غيرِ تشديدٍ، فهو الدِّينُ الحقيقُ بأن يقومَ له الموحِّدون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/172.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/198.
(5) ابن الجزريّ، النّشر: 2/267.
(6) سيبويه، الكتاب: 3/642، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/183.

بوجوهِهم، والمبالغةُ في قراءةِ التَّشديدِ، من قولِه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، مِنَ القيامِ بالأمرِ "فالإسلامُ قيِّمٌ بالأمَّةِ وحاجتِها، يقالُ: فلانٌ قيِّمٌ على كذا، بمعنى: مدبِّرٌ لهُ ومصلحٌ، ومنهُ وصفُ اللّهِ تعالى بالقيُّومِ"[1]، فقراءةُ التَّشديدِ أبلغُ.

وصفُ الدِّينِ بأنَّهُ قيِّمٌ منْ بابِ الاستعارةِ:

الأمَّةُ مفتقرةٌ إلى أنْ يكونَ الإسلامُ قيِّمًا على دينِها ودنياها

قولُه تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾، إذا أُطلِقَ القيامُ على الاستقامةِ، فهوَ منْ بابِ المجازِ؛ لأنَّ المرءَ عندَ قيامِه تعتدلُ قامتهُ، والأقربُ جعلهُ منْ بابِ القيامِ بالأمرِ، "فيستعارُ القيامُ للكفايةِ بما يحتاجُ إليهِ، والوفاءُ بما فيهِ صلاحُ المقوَّمِ عليهِ، فالإسلامُ قيِّمٌ بالأمَّةِ وحاجتِها، يقال: فلانٌ قيِّمٌ على كذا، بمعنى: مدبِّرٌ لهُ ومصلحٌ"[2]، ففي ذلكَ فحوًى بليغٌ في أنَّ حاجةَ الإسلامِ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقولِه: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾:

موقعُ الآيةِ عودٌ على ما سبقَ إغراءً باتِّباعِ ملَّةِ إبراهيمَ

قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، يقعُ لفظُ ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾، موقعًا نحويًّا وبيانيًّا في كونِه متعالقًا معَ ما سبقَ، فإنَّهُ يَحتملُ أن يكونَ منصوبًا على الإغراءِ، أي: اتَّبعْ ملَّةَ إبراهيمَ[3]. ويجوزُ جعْلُ الملَّةِ بدلًا مِنَ الدِّينِ[4]، أو تكون منصوبة بفعل محذوف، مثل: أعني أو أخصُّ، وفي كلٍّ؛ فهي متَّصلةٌ بما قبلَها غيرُ منقطعةٍ عنهَا.

حكمةُ التَّعبيرِ بملَّةِ إبراهيمَ بطريقِ الإضافةِ:

استمالةُ العربِ وأهلِ الكتابِ لملَّةِ إبراهيمَ الَّذي يؤمنونَ بهِ جميعًا

قولُه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ منْ حديثِه ﷺ ؛ إذْ أخبرَ أنَّ الحقَّ ﷻ قدْ هداهُ إلى الدِّينِ القيِّمِ، وهوَ ملَّةُ إبراهيمَ عليه السلام، معَ أنَّ الدِّينَ القَيِّمَ الَّذي جاءَ بهِ هوَ دينُ الإسلامِ، وحكمةُ التَّعبيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199.
(3) السّمعانّي، تفسير القرآن: 2/161.
(4) العكبريّ، التّبيان: 1/553، والسّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 2/137.

بملَّةِ إبراهيمَ، أنَّه منْ بابِ "استمالةِ العربِ، ثمَّ أهلِ الكتابِ إلى الإسلامِ، ببيانِ أنَّ أساسَهُ وقواعدَ عقائدِهِ، ودعائمَ فضائلِهِ، هيَ ما كانَ عليهِ إبراهيمُ، المتَّفقُ على هداهُ وجلالتِهِ"[1]. وهذا منْ دأبِهِ المستمرِّ ﷺ، في أنَّهُ كانَ حريصًا على هدايةِ النَّاسِ جميعًا، ولقدْ وصفهُ الحقُّ ﷻ، بقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

فائدةُ العدولِ منْ صيغةِ (مفعول) إلى صيغةِ (فعلة):

وعدلَ عن المفعولِ إلى الفِعْلةِ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾، فالمِلَّةُ صيغةُ (فِعْلة) بمعنى المفعولِ، أي: المملولِ منْ أملَّ الكتابَ: إذا لقَّنهُ الكاتب ما يكتبهُ، ثمَّ اقترنتْ بالتَّاءِ لمَّا صيَّروها بمعنى الدِّينِ[2]. ولمَّا كانَ الإملالُ أوِ الإملاءُ، يحدثُ شيئًا فشيئًا، وهوَ " أنْ تُلقي على الكاتبِ جملةً، فيكتبَها، ثمَّ تُملي عليهِ جملةً أخرى فيكتبَها... قالوا: لأنَّ المِلَّةَ - وهيَ الشَّريعةُ - تنزلُ جُمَلًا جُمَلًا حتَّى تَتِمَّ كما وقعَ في ديننا، فُرضتِ الصَّلاةُ أوَّلًا قبلَ الهجرةِ، ثمَّ فُرضتِ الزَّكاةُ والصِّيامُ في عامِ اثنينِ منَ الهجرةِ، وفُرِضَ الحجُّ في عامِ تسعةٍ على أصحِّ الأقوالِ، شيئًا بعدَ شيءٍ حتَّى تتمَّ"[3].

الإملالُ أنْ يُملي عليهِ جملةً جملةً، والمِلَّةُ الدِّينُ المُنْزلُ شيئًا فشيئًا

معنى لفظةِ ﴿حَنِيفًاۚ﴾، ودلالتُها النَّحْويَّةُ في الآية:

ومعنى لفظةِ الحنيفِ في قولِه تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ هو الَّذي يجانبُ الباطلَ منَ الأديانِ، فيكونُ مهتديًا مخلصًا في عبادتِه[4]، أمَّا دلالتُه النَّحْويَّةُ: فعلى "أنْ يكونَ حالًا من إبراهيمَ ومن المِلَّةِ، وذكَّر لأنَّ المِلَّةَ والدِّينَ واحدٌ"[5]. ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا لفعلٍ

الحنيفُ الَّذي يُجانِفُ الباطلَ، وهوَ حالُ إبراهيمَ عليه السلام

(1) رضا، تفسير المنار: 8/212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/199 - 200.
(3) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/617.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/200.
(5) العكبريّ، التّبيان: 1/280، والشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/620.

مقدَّرٍ بمعنى: أعني حنيفًا[1]، والحاليَّةُ أقوى لما فيها من تغيُّرٍ في مجانبةِ الباطلِ إلى الحقِّ.

نكتةُ مجيءِ الحالِ من المضافِ إليه إبراهيمَ عليه السلام:

غرضُ الاستغناءِ عَنِ المضافِ، وكأنَّ إبراهيمَ قد تلبَّسَ بالمِلَّةِ

وقعَ الحالُ ﴿حَنِيفًا﴾ من المضافِ إليه ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، وجازَ ذلكَ؛ لأنَّ المضافَ جزءٌ من المضافِ إليه، وآيةُ ذلكَ عدمُ تأثُّرِ المعنى العامِّ، مع حذفِهِ، كأن يقالَ: اتَّبعوا إبراهيمَ عِوَضًا من اتَّبعوا مِلَّةَ إبراهيمَ[2]، وفي ذلكَ إيماءٌ بتلبُّسِ إبراهيمَ عليه السلام بالمِلَّةِ والدِّينِ، وكأنَّهما أصبحا شيئًا واحدًا؛ ولذلكَ وصَفَهُ الحقُّ سبحانه وتعالى بأنَّهُ كانَ أمَّةً وحدَهُ.

(الواوُ) تفيدُ العطفَ في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

العطفُ فيه ردٌّ على من يزعمُ من المشركينَ بأنَّهُ من مِلَّتِه

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، الواوُ هنا تفيدُ العطفَ، والجملةُ معطوفةٌ على ما سبقَ منْ كلامٍ مُتَعَلِّقٍ بالهدايةِ إلى الطَّريقِ المستقيمِ، وهوَ ردٌّ على منْ يدَّعي منَ المشركينَ، على أنَّهُ منْ ملَّتِهِ عليه السلام[3]؛ فكلٌّ يزعمُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام نبيُّهُ ورسولُهُ. ويمكنُ حملها على الحال، والتَّقدير: دينًا قيِّمًا مِلَّةَ إبراهيمَ، حالَ كونهِ حنيفًا، وحالَ كونهِ ليس من المشركين.

نكتةُ دخولِ ﴿كَانَ﴾ الدَّالَّةِ على المضيِّ بعدَ النَّفي:

إيذانٌ بنفيِ الشِّركِ عنْ إبراهيمَ على وجهِ التَّأبيدِ

ولمَّا نفَى انتماءَ إبراهيمَ إلى المشركينَ، أولجَ ﴿كَانَ﴾ الماضَويَّةَ، بعدَ النَّفي في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، ونكتةُ ذلكَ أنَّهُ تعالى "نفَى عنْ إبراهيمَ الشِّركَ في الكونِ الماضِي، معناهُ: أنَّهُ لم يقعْ منهُ كونُ الشِّركِ فيما مضَى أبدًا، وهذا حقٌّ لا شكَّ فيهِ، والآياتُ الدَّالَّةُ عليهِ كثيرةٌ"[4]. فالنَّفيُ هنا نفيٌ قاطعٌ على نِيَّةِ

(1) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/620.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/70.
(4) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 2/621.

الاستغراقِ، فلم يكنْ مِن إبراهيمَ شركٌ أبدًا، فلذلكَ جاءَ بـ﴿كَانَ﴾ في سياقِ النَّفي.

معنى حرفِ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾:

إفـادةُ (مِـن) الاستـغـراقَ في نفي إشراكِهِ ﷺ من كلِّ وجهٍ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في الجملةِ ابتدائيَّةٌ استغراقيَّةٌ، تفيدُ استغراقَ الجنسِ في نفيِ إشراكِهِ ﷺ، "وفيهِ ردٌّ على كفَّارِ قريشٍ؛ لأنَّهمْ يزعمونَ أنَّهمْ على دينِ إبراهيمَ، فأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ إبراهيمَ لمْ يكنْ مِنَ المشركينَ، ولاممَّنْ يعبدُ الأصنامَ"[1]، فـ﴿مِنَ﴾ تنفي إشراكَ إبراهيمَ ﷺ من جميعِ الوجوهِ. ويمكن أن تكون للتَّبعيض.

نكتةُ العدولِ عن نفيِ الإشراكِ إفرادًا إلى نفيِ الإشراكِ جمعًا:

التَّعبيرُ بالجمعِ يتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ المحضِ وشوائبِهِ عنهُ

عبَّرَ بالجمعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، ولم يقلْ: (وما كانَ مشركًا)، لاشتمالِهِ على نُكْتَةٍ، وهيَ أنَّ نفيَ الإشراكِ مجموعًا، يتضمَّنُ نفيَ الإشراكِ المحضِ عنْ إبراهيمَ ﷺ، دِقِّهِ وجِلِّهِ وشوائبِهِ. فالمشركونَ على أصنافٍ كثيرةٍ: وَثَنِيِّين، ومُجَسِّمين، ومُثَلِّثين، ومُتَوَسِّطينَ بينهمْ وبينَ اللهِ وغيرهمْ، فأرادَ في هذا التَّعبيرِ أنْ يُنَزِّهَ إبراهيمَ عنْ هذهِ الأصنافِ جميعًا[2] من دعاويهم وافتراءاتِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الدّين) و(المِلّة):

الـدِّيـنُ هـوَ الانـقـيـادُ للشَّريعةِ، والمِلَّةُ جملةُ الشَّريعةِ لا آحادُها

الدِّينُ معروفٌ، وهوَ يطلقُ على الطَّاعةِ والانقيادِ للشَّريعةِ، أمَّا المِلَّةُ، فهيَ تستعملُ في جملةِ الشَّريعةِ لا آحادِها؛ لذلكَ لا تُضافُ إلَّا إلى النَّبيِّ مسندةً إليهِ كقولِهِ تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ و﴿مِلَّةَ ءَابَآءِى﴾[3]، أمَّا الدِّينُ؛ فهو "اسْمٌ لما عليهِ كلُّ وَاحِدٍ من

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/1266.
(3) الرّاغب، المفردات: (ملل).

أَهلِهَا، أَلا ترى أَنَّه يُقَالُ: فلَانٌ حسنُ الدِّينِ، وَلَا يُقَالُ: حسنُ الْمِلَّةِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ: هُوَ من أهلِ الْمِلَّةِ"[1].

وفي الآيةِ عبَّرَ عن الطَّاعةِ الشَّخصيَّةِ والانقيادِ الفرديِّ بالدِّينِ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾، ثمَّ انتسبَ إلى جملةِ الشَّريعةِ بقولِه: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾، والمِلَّةُ: النِّحْلَةُ الَّتي ينتحلُها الإنسانُ مِنَ الدِّينِ، وهيَ الدِّينُ والمِلَّةُ، وتُتَّخذُ عقيدةً، مثلَ العطيَّةِ، ومنْ ينتحلُ مذهبًا، أيْ: يتَّخذهُ[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 220.

(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (لمم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نحل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»